القسمُ الأوَّل

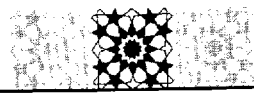

المدخل
إلى عالم القراءة والقرَّاء

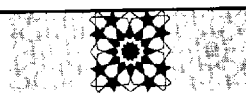

المدخل

★ القراءة أولاً:

ليس غريباً أن تكون كلمةُ ﴿اقْرَأْ﴾ هي الأولى التي أنزلها الله تعالى من السماء على قلب النبي ﷺ، فقال ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وهذا يدلُّ دلالةً عظيمة على شأن القراءة، وأهميتها في حياة الفرد والمجتمع، وفي بناء العقل البشري لتحقيق التواصل المعرفي، والوصول إلى نواحي العلم.. فكل ذلك يبدأ من القراءة؛ التي هي مهارة مُقَدَّسة، ذكرها ربُّنا ﷻ في كتابه الكريم للدلالة على مكانة العلم والتعلم، ولحثِّ الإنسان على التعلم واكتساب المعرفة[1].

(١) مهارات الاتصال، للدكتور أحمد مصطفى حليمة، دار ابن كثير ومؤسسة علوم القرآن، ط١، ٢٠٠٥م، (ص٧٨).

ويُفهم من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ **الأمر الجازم الحازم بالقراءة، والحث على تعلُّمها، وتعليمها**[١].

وكان للقراءة مكانة لا تُضاهى في أمكنة تلقِّي العلم، فقد كان يُنتقى للقراءة من يكون فصيحَ اللسان، واضح البيان، حَسَن العبارة، جيِّد الأداء.

قال الإمام الشافعي: «جئْتُ إلى مالك وقد حفظتُ (الموطأ)، فقلت له: إني أريد أن أقرأ عليك (الموطأ)، فقال: اطلبْ إنساناً يقرأ لك. فقلتُ له: اسمعْ قراءتي، فإنْ لم تُعْجِبْكَ أخذتُ إنساناً يقرأ لي.. فقرأت عليه»[٢].

وعن شعبة أنه قال: «سألتُ أيوبَ ومنصوراً عن القراءة، فقالا: جيد»[٣].

ولا يستطيع أن يقوم الإنسان بمهارة القراءة ما لم يكن قادراً على استخدام اللغة، والتمكن من مفرداتها، وقواعدها،

---

(١) شواهد في الإعجاز القرآني، لعودة أبو عودة، دار عمار والبيارق، الأردن، (ص٨٤).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م، (١/٦٠٨).

(٣) المصدر السابق (١/٥٨٩).

وأساليبها، مع الوعي لِما يقرأ، والإدراك العميق لما هو بصدد قراءته، والتفاعل معه.

★ اقرأ...ما أنا بقارئ:

أورد الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة صحيحه حديثَ بدء الوحي، فقال: «عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أوَّلُ ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرُّؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فَلَق الصبح. ثم حُبِّبَ إليه الخَلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّثُ فيه ـ وهو التَّعبُّد ـ الليالي ذوات العَدَد، قبلَ أن يَنْزِعَ إلى أهله، ويَتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها. حتى جاءه الحقُّ، وهو في غار حِراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ.

قال: «**ما أنا بقارئ**».

قال: «فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قلتُ: «**ما أنا بقارئ**».

فأخذني فغطَّني الثانيةَ حتى بَلَغَ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني فقال: اقرأ.

فقلتُ: «**ما أنا بقارئ**».

فأخذني فغطَّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١ ـ ٣]».

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤادُه، فدخل على خديجة بنتِ خُويلد رضي الله عنها فقال: «**زمِّلُوني، زمِّلُوني**».

فزمَّلُوه؛ حتى ذَهَبَ عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «**لقد خشيتُ على نَفْسي**» فقالت خديجة: كلا واللهِ ما يُخْزيك اللهُ أبداً...»[(١)].

وهكذا كانت كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ هي الأولى في الخطاب الإلٰهي الموجَّه إلى الإنسان، وبها بُدِئَتِ الرسالة، وخُتِمَتِ النبوة[(٢)].

فالقراءة أمرٌ صارم جاء بصيغة الأمر، فهو ضرورة للمجتمع البشري، لا يمكن التهاون فيه، ولا الاستغناء عنه، بل هو واجب التنفيذ للتخلص من الأمية والجهل؛ فقيمةُ الإنسان ترتبط بما يحوز من العلم الموجَّه لخير الإنسانية.

---

(١) رواه البخاري (٣).
«**الحق**»: الأمر الحق. «**غطني**»: ضمَّني وعَصَرني. «**أرسلني**»: أطلقني.
«**زمِّلوني**»: غطُّوني ولفُّوني بما يتغطى به النائم. «**الروع**»: الفزع.

(٢) القراءة أولاً، لمحمد عدنان سالم، دار الفكر، دمشق، ط٦، ٢٠١٠م، (ص٢٦).

وهاهو ذا رسول الله ﷺ يطلب الاستزادة من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولا يُستكمل العلم إلا بالقراءة.

وصحيحٌ أن النبي محمداً ﷺ لم يُقدِّم له جبريل عليه السلام في غار حراء ألواحاً ليقرأها، إنما أمره بالقراءة المعرفية التي تتَّسعُ لتشتمل على السمع والبصر والفؤاد، فهذه وسائلُ للمعرفة وردت في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

إلا أنَّ لَفْظَ ﴿ٱقْرَأْ﴾ عام، فهو يوحي بالقراءة من الكتاب، والصحيفة، والمجلَّة ... وهذا ما أُمِرَ به الإنسانُ بعموم النص.

ولعلَّنا نفهم من إيراد لفظ (القلم) بجانب القراءة في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣ ـ ٤] أن القراءة ترتبط بالقلم؛ الذي يخطُّ به الكُتَّاب مؤلفاتهم، ويضعون فيها عُصارة فكرهم.

وهنا يتجلّى **دورُ القارئ عندما يُقْبِل على شراء الكتب**، أو استعارتها، فيطالع مضمونها، وما احتوت عليه من أفكار وآراء، فيأخذ النافع، ويدع ما عدا ذلك؛ من خلال عمليةٍ عقلية غاية في التعقيد، وتكون النتيجة قراءة ناقدة بإمعانٍ وأناة ودِقّة.

★ لماذا نحبُّ القراءة ؟:

أجاب عباس محمود العقاد عن هذا السؤال، فقال:

أهوى القراءة لأن عندي حياةً واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لاتكفيني، ولا تُحرِّك كلَّ ما في ضميري من بواعث الحركة.

والقراءة ـ دون غيرها ـ هي التي تُعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد؛ لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإنْ كانت لا تُطيلها بمقادير الحساب.

فكرتُكَ أنت فكرة واحدة... شُعورُك أنت شعور واحد...خيالُكَ أنت خيالُ فَرْدٍ إذا قصرتَهُ عليك...

ولكنك إذا لاقيتَ بفكرتك فكرةً أخرى، أو لاقيتَ بشعورك شعوراً آخر، أو لاقيتَ بخيالكَ خيالَ غيرك... فليس قُصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، أو أن الشعور يصبح شعورين، أو أن الخيال يصبح خيالين... كلا، وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات من الفِكرَ في القوة، والعمق، والامتداد...

ومهما يأكل الإنسانُ فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسدٍ واحد، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحلَّ في مكانين، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد،

ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرآتين[١].

★ القراءة الجيِّدة:

يتساءل الكثيرون: كيف يكون أحدُنا قارئاً جيداً؟ وكيف نفهم ما نقرأ؟ وماذا نقرأ؟ إلى ما هنالك من أسئلة مهمة، تتطلب الإجابة عنها عدداً من المجلدات.

ولكننا باختصار نقول:

من القضايا المهمة في الحياة أن يكون أحدُنا قادراً على القراءة الجيدة، فيحرز نجاحاً في مدرسته، أو معهده، أو جامعته، أو وظيفته...وهذا النجاح له أثر بالغ في تحديد معالم المستقبل، فكيف السبيل لاستكمال المران على القراءة، وجعْلها في المقام الأرفع من اهتمامات الإنسان؟.

لابدَّ أولاً أن نذكر أن **القراءة تعني الحصول على مزيدٍ من المعلومات**، فنحن إزاء قراءة مثمرة، ذات نتائج إيجابية عملية، ترتبط بالواقع والمستقبل، ويصبح القارئُ مَحَطَّ أنظار الآخرين في المنتديات والمجالس على تنوُّعها، ويتمتع بجاذبية خاصة،

(١) أنا، لعباس محمود العقاد، دار الهلال، مصر، دون تاريخ، (ص٨٦ ـ ٨٧).

فيسعى معظمُ الحاضرين إلى صحبته؛ لما يجدون عنده من المزايا الجليلة، والصفات المتألقة، فكلَّما كوفئ الإنسان على قراءة، زاد إقبالُه على القراءة، وفَهْمه لما يقرأ.

كذلك يشعر القارئ بقدر معيَّن من الرضا الشخصي، ذلك أن الكتاب يضيف رصيداً إلى مخزون المطالِع، ويملأ نفسه بهجة وحبوراً.

ويستطيع القارئُ أن يتخذ خطوات معينة لتكون قراءته مثمرة، **ومن تلك الخطوات**[1]:

أ ـ أن يبدأ بتنفيذ برنامج دقيق، يستهدف تصحيح العادات القديمة، وتكوين عادات أخرى أفضل.

ب ـ أن يستمر في برنامجه فترة من الزمن؛ حتى يتأكد من أنه نجح في تكوين عادة جديدة، وبالتالي تتحسن قراءتُه، ويرتقي في سُلَّم المعرفة.

ج ـ أن يقرأ بتمهل ليفهم، ويدرك المراد من المكتوب.

وفي النهاية سيرى القارئُ أن مهارته قد ازدادت، وتعلَّم شيئاً

---

(١) تيسير القراءة، يول ويني، ترجمة سامي ناشد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، (ص٢٥).

جديداً، وأحرز تقدماً بِنِسَبٍ معينة، وزاد شعوره بالمتعة الجمالية.

★ القراءة طريق للرقي:

شغف العرب بالكتب شغفاً عظيماً؛ لحبِّهم للقراءة، وبذلهم الغالي والنفيس لاقتناء الكتاب، وتأسيس المكتبات الخاصة والعامة، في مختلف الموضوعات، حتى قامت الحضارة على أسس متينة، وقواعد راسخة، جلبت الخير العميم للأمة، ولكل من اتصل بها، مما ساعد على التمازج الحضاري، وتغيير مفاهيم كثيرة، وسد الحاجة إلى القراءة، وإرضاء طموح طلاب العلم؛ الذين اندفعوا يقرؤون ويبحثون؛ حتى نالو الدرجات العليا.

وحفظ لنا التاريخ أخباراً وقصصاً في منتهى الغرابة، وكلها تشهد بحب العرب والمسلمين للقراءة، وتفانيهم في حيازة الكتاب، والحرص على اقتنائه، فلم تكن الحضارةُ وليدة مصادفة أو طفرة، إنما قامت على مرتكزات من القراءة الواعية، والبحث العميق عن كتابٍ هنا وآخر هناك.

وبينما نجد الدولة المنتصرة تطلب من الدولة المهزومة تسليمها الأسلحة والذخائر والسفن الحربية...كشرط أساس لعقد

معاهدة الصلح؛ إذا بنا نجد هارون الرشيد بعد انتصاراته في عمورية وأنقرة؛ يُطالب بتسليمه المخطوطات اليونانية.

كما نجد الخليفة المأمون يطالب ـ عقب انتصاره على البيزنطي ميخائيل الثالث ـ بتسليمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة، والتي لم تُتَرْجَمْ إلى العربية بعد، كتعويض لخسارة الحرب؛ لأنها كما يقول: الأسلحة العقلية التي يتسلح بها في سبيل السلام، وتدعيمه[1].

ولا يفوتنا أن نذكر أن وسط أوربة كان ـ فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين ـ مسرحاً للأميَّة؛ التي بلغتْ نسبتُها خمسةً وتسعين بالمئة.

وبينما حاول كارل الأكبر (شارلمان) ـ وهو في سِنٍّ متقدمة ـ تعلُّم الهجاء، وحتى هذه التوطئة قد أعيته.. وبعده بقرون عديدة نجد الأشراف الأوربيين يتحايلون على التهرب من تعلُّم القراءة والكتابة، إذا بنا في العصر نفسه نجد في قرى ومدن البلاد العربية آلاف الآلاف من المدارس التي تضيق بالصبية من

(١) شمس الله تسطع على الغرب، للدكتورة سيجريد هونكه، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، (ص٢٥٧).

الجنسين، وهم ما بين سن السادسة والحادية عشرة، وكانوا يتعلمون القراءة والكتابة[١].

إن عِشْقَ الكلمة عنوانُ الحضارة العربية، والاهتمام بالكتب سمة شعبية، وعلامة مميزة لشعبٍ مسلم أحبَّ العلم، وأدرك فَضْلَهُ، على كل المستويات، حكاماً وأفراداً، علماء وقادة، دارسين وطلاب عِلْم ومعرفة، وما ذاك إلا دليل على مكانة الكتاب في عقل العربي، واحترامه للقراءة، وبيان ساطع على الحضارة التي سَمَتْ في آفاق الحياة[٢].

★ قراءة الكتب ضرورة:

من يُقلِّب صفحات المصنفات التراثية، فإن عينه تقع على كثير من الأخبار والآثار؛ التي تدل على محبة القراءة، وإدامة النظر في الكتاب، ومن ذلك[٣]:

● أن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ سُئل عن دواءٍ للحفظ، فقال: إدامة النظر في الكتب.

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧١).

(٢) العلم، لريم الخياط، دار اليمامة، دمشق، ط١، ١٩٩٩م، (ص٩٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٩٩٤م، (٢/ ١٢٢٧ وما بعدها).

• وقال أحمد بن أبي عمران: كنتُ عند أبي أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، وقد تخلَّف في منـزله، فبعث غلاماً من غلمانه إلى أبي عبد الله بن الأعرابي ـ صاحب الغريب ـ يسأله المجيءَ إليه، فعاد إليه الغلام فقال: قد سألتُه ذلك، فقال لي: عندي قومٌ من الأعراب، فإذا قضيتُ أربي منهم أتيتُ.

قال الغلام: وما رأيتُ عنده أحداً؛ إلا أنَّ بين يديه كتباً ينظر فيها، فينظر في هذا مرَّةً وفي هذا مرة، ثم ما شَعَرْنا حتى جاء، فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله! سبحان الله العظيم، تخلَّفْتَ عنا، وحَرَمْتَنا الأنسَ بك، ولقد قال لي الغلام: إنه ما رأى عندك أحداً، وقلتَ: أنا مع قومٍ من الأعراب، فإذا قضيتُ أربي معهم أتيتُ! فقال ابن الأعرابي:

لنا جلساءُ ما نملُّ حديثهم
ألبَّاءُ مأمونونَ غُيَّباً ومَشْهَدا

يفيدوننا من علمهم عِلْمَ ما مضى
وعقلاً وتأديباً ورأياً مسدَّدا

بلا فتنةٍ تُخْشَى ولا سُوء عشرةٍ
ولا يتَّقى منهم لساناً ولا يدا

فإن قلتَ: أمواتٌ، فلا أنتَ كاذبٌ

وإن قلتَ: أحياء، فلستَ مُفندا

• وقال أبو عمرو بن العلاء: «ما دخلتُ على رَجُلٍ قطُّ، ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظر في دفتر، وجليسه فارغ؛ إلا حكمتُ عليه، واعتقدتُ أنه أفضلُ منه عَقْلاً».

• وكان عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز لا يجالس الناس، ونزل المقبرة، فكان لا يكاد يُرى إلا وفي يده دفتر، فَسُئِل عن ذلك، فقال: لم أَرَ قطُّ أوعظَ من قبر، ولا أمتعَ من دفتر، ولا أَسْلَمَ من وحدة.

• ورُوِيَ عن الحسن اللؤلؤي أنه قال: لقد غبرتْ لي أربعون عاماً، ما قمتُ ولانمتُ إلا والكتابُ على صدري.

• وكان الشاعر المتنبي كثير القراءة، سريع الحفظ، وقد ذهب مرَّة إلى بائع كُتُب، وأمسك بكتاب نحو ثلاثين ورقة، ونَظَر فيه طويلاً، فقال له البائعُ: ياهذا! أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإنْ كُنتَ تريد حفظه فهذا يكون ـ إن شاء الله ـ بعد شهر! فقال المتنبي: فإنْ حفظتُه في هذه المدَّة فما لي عليك؟ قال:

أهبُ لك الكتاب. قال المتنبي: فبدأت أقرأ وهو يتابع لي الكلمات، حتى انتهيتُ إلى آخره[١].

● وقال الجاحظ: سمعتُ محمد بن الجهم يقول: إذا غشيني النُّعاسُ في غير وقت النُّعاس؛ تناولتُ كتاباً، واستجدتُه، ورجوتُ فائدته؛ ولم أُوثر عليه عِوَضاً، ولم أَبْغِ به بدلاً، فلا أزال أنظرُ فيه ساعة بعد ساعة[٢].

والأخبار في هذا الميدان كثيرة، تدل بمجملها على محبة القراءة، وتفهم ما ورد في المصنفات، واستمرار التردد على صحبة الكتاب، فالقراءة مستمرة، ومواكبة العلم لا تنتهي مسيرتها، ولا يحول دونها أيُّ عثرة.

★ اختيار الكتاب:

أهمُّ أمرٍ يواجه القارئ: هو قدرته على اختيار الكتاب الجيد، فالمادةُ المطبوعة كثيرة جداً، وهي متنوعة حسب العلوم

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، للبديعي، تحقيق مصطفى السقا ورفيقه، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، (ص٢٠ ـ ٢١).
(٢) المحاسن والأضداد، للجاحظ، شرح الدكتور يوسف فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، (ص١٠).

والآداب بفروعها وشُعَبها المختلفة، وهنا تتبدَّى المشكلة، فأيّ كتاب ينبغي على القارئ أن يشتريه ليقرأه؟:

أولاً: يطلب من القارئ أن يحدِّد المادة التي يريد أن يقرأها، ومن ثمَّ يحاول العثور على الكتاب؛ الذي يفيده أكبر الإفادة في المجال الذي حدده.

ثانياً: عنوان الكتاب يُعطي فكرة عامة عن الموضوع، الذي يُعالجه الكاتب، وإن هذا وحده غير كافٍ، وينبغي ألا يصبح العنوان أساساً لاختيار الكتاب أو نبذه.

ثالثاً: اسمُ المؤلف، والبيانات الخاصة التي تُكتب تحت الاسم، تزيد من فهْم القارئ لمحتويات الكتاب.

رابعاً: تاريخُ طباعة الكتاب له أهمية كبرى، لاسيما إذا كان الموضوع متعلقاً بالتلفاز أو الحاسوب أو الطاقة الذرية...إلخ، حيث يكون التطور في هذه الموضوعات سريعاً، ويخضع للتغير بين الحين والآخر؛ لأن المطلوب هو الحصول على أحدث الحقائق العلمية.

★ شغفٌ بالقراءة لايضاهى:

اهتمَّ العلماءُ بالقراءة اهتماماً بالغاً، وامتلأت بطونُ الكتب بالأخبار الكثيرة في هذا الميدان، ولا بأس بإطلالة على طائفة

من تلك الأخبار؛ ليكون القارئُ على معرفةٍ بها، وتأمُّلٍ فيها، فينسج على منوال أولئك، و يقتدي بهم، فهم الأسوة الصالحة، والنموذج الأمثل.

• قال ابن الجوزي: «إني أُخبر عن حالي؛ **ما أشبعُ من مطالعة الكتب**، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأني وقعتُ على كنز. ولقد نظرتُ في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلَّد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكُتُب الحميدي، وكُتُب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب ـ وكانت أحمالاً ـ، وغير ذلك من كلِّ كتابٍ أقدرُ عليه.

ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرين ألف مجلَّد كان أكثر، وأنا بَعْدُ في الطَّلَب»[1].

• وقال الحافظ السخاوي في ترجمة أحمد بن سليمان بن نصْر الله البُلْقاسي المتوفى سنة (٨٥٢هـ): «كان إماماً، علَّامة، قوي الحافظة. . .محباً في العلم والمذاكرة والمباحثة، غير مُنفكّ عن التحصيل، بحيث إنه كان **يطالع في مشيه**، ويُقرئ القراءات

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت، (ص٥٥٧).

في حال أكله؛ خوفاً من ضياع وقته في غيره. . .سريع القراءة جدّاً»[١].

• وقال الجَنَدي السكسكي في ترجمة أبي الخير بن منصور الشماخي السعدي، المتوفى سنة (٦٨٠هـ): «أخبرني جماعة ممن أدركه أنه كان لايوجد إلا وعنده كتابٌ ينظر فيه، ومحبرة، وأقلام يصلح بهما ما وَجَدَ في الكتاب»[٢].

• وقال ابن عساكر في ترجمة الفقيه سُلَيْم بن أيوب الرازي: «حُدِّثْتُ عنه أنه كان يُحَاسِبُ نَفْسَهُ على الأنفاس، لا يدع وقتاً يمضي عليه بغير فائدة؛ إما ينسخ، أو يُدَرِّس، أو يقرأ. . .ولقد حدَّثني عنه شيخُنا أبو الفرج الإسفراييني؛ أنه نزل يوماً إلى داره ورجع، فقال: قد قرأت جزءاً في طريقي»[٣].

• وقال الذهبي في ترجمة المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الأموي ـ صاحب الأندلس ـ: «كان ذا غرامٍ

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، طبعة القدسي، (١/ ٣١١).

(٢) السلوك في طبقات العلماء والملوك، للجندي السكسكي، تحقيق محمد الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، (٢/ ٣٠).

(٣) تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، دار الكتاب العربي، بيروت (ص٢٦٣).

بالمطالعة، وتحصيل الكتب النفيسة الكثيرة. . .بحيث إنها قاربتْ نحواً من مئتي ألفِ سِفْر. . .وقلَّ أن تجد له كتاباً إلا وله فيه نَظَر وفائدة، ويكتب اسم مؤلفه، ونَسَبه، ومولدَه، ويُغرب، ويفيد»[١].

• ونقل ابن رجب في ترجمة العلامة أبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكْبَري، المتوفى سنة (٦١٦هـ)؛ عن ابن النجار قوله: «قرأتُ عليه كثيراً من مصنفاته، وصحبتُه مدة طويلة. . .وما يمضي عليه ساعة إلا وواحد يقرأ عليه، أو مُطالع له، حتى ذكر لي أنه بالليل تقرأ له زوجته في كتب الأدب، وغيرها»[٢].

• وقال جمال الدين القاسمي عن نفسه: «اتفق لي بحمده تعالى قراءة (صحيح مسلم) بتمامه روايةً في أربعين يوماً، وقراءة (سنن ابن ماجه) كذلك في واحد وعشرين يوماً، وقراءة (الموطأ) كذلك في تسعة عشر يوماً، وقراءة (تهذيب التهذيب) مع تصحيح سهو القلم، وتحشيته في نحو عشرة أيام»[٣].

• وقال خير الدين الزركلي في ترجمة (بدر الدين الحسني):

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٦/ ٢٣٠).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، (٢/ ١١١).

(٣) الفضل المبين في شرح الأربعين، للقاسمي، تحقيق عاصم البيطار، دار النفائس، بيروت، (ص٥٣ ـ ٥٤).

«**حفظ الصحيحين غَيْباً بأسانيدهما، ونحو (٢٠) ألف بيت من المتون العلمية**»[١].

وقال عنه الشيخُ علي الطنطاوي: «**كان يقرأ دائماً**، لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائماً، أو في صلاة، أو درس، أو في طريقه من المسجد إلى البيت.. ما فارق الكتب قطُّ، ولا استعان على النظر بنظارة، وقد مات حديد البصر صحيحه، وما أحبَّ في الدنيا غير الكتب...فكان يشتري الكتاب يسمع به ولو كان مطبوعاً في أقصى الهند، ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهباً، ولايدع كتاباً حتى يقرأه، أو يتصفَّحه تصفُّح المتثبت»[٢].

• وأخبر الشيخ علي الطنطاوي عن نفسه، فقال: «أنا اليوم، وأنا بالأمس، وكما كنتُ في الصغر، **أُمضي يومي أكثره في الدار أقرأ**، وربما مرَّ عليَّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة، ومعدَّل قراءتي مئة صفحة من سنة (١٣٤٠هـ) إلى هذه السنة (١٤٠٢هـ)»[٣].

★ خصوم القراءة:

يوماً بعد يوم تزداد مشاغل الحياة، وتتوتَّر النفوسُ نتيجة

(١) الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، (٧/ ١٥٨).
(٢) رجال من التاريخ، لعلي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، (ص٣٨٢).
(٣) الذكريات، لعلي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، (١/ ١٦٢).

تكالب هموم الحياة، فلم يبق مُتَّسَعٌ لقراءة كتاب، فالأذهان غير صافية، والأعمال كثيرة، ومتطلبات المعيشة ترهق الناس على الدوام؛ فإذا بالإنسان يطلب وقتاً لراحة بدنه، أو نزهةً يبتعد بها عما يعتصره من غمّ متواصل، وقلق يكاد لا ينقطع.

وها هي الإعلاناتُ التجارية في كل مكان، تخلب الأبصار، وتدهش العقول، وتسيطر على مجالس الحديث، إلى جانب المحطات الفضائية بكل ما فيها من إثارة، ومسلسلات، وبرامج مُتتابعة على مدار الليل والنهار، وهي لا تكلف الإنسانَ سوى الجلوس في بيته، متكئاً على أريكته، وبيده جهاز التشغيل، يُقلِّب مئات المحطات في زمن قصير.

علاوة على وسائل الثقافة الأخرى، كالأقراص الليزرية؛ التي يحتوي الواحد منها على عشرات المجلدات، بل أكثر من ذلك، وبتكلفة ضئيلة.

هؤلاء بعض خصوم القراءة؛ التي دفعت الكثيرين كي يزهدوا بالقراءة، والبحث عن الكتاب.. وكم من أناس يملكون عدداً من الأقراص الليزرية تُشكِّل في مجموعها مكتبة منزلية، موضوعة في صندوق صغير، لكنها تحتوي على آلاف المصنفات في مختلف أنواع المعرفة!.

وعلى الرغم من كل هذا الكلام، وتلك الخصومة القائمة،

فإن الكتاب يبقى هو الأصل، وله ميزات خاصة تعطيه أهمية كبرى، فمن ذلك[١]:

- للقارئ حرية اختيار الكتاب، المتضمن موضوعاً محبَّباً ونافعاً.

- يُخضع القارئ قراءته لوقت يناسبه، وفي مكان ينتقيه.

- القراءة رخيصة السعر بالمقارنة مع كثير من السلع، ووسائل الاتصال الأخرى.

- الكتاب له مكانته المعنوية لدى القارئ، فوجود مكتبةٍ منزلية شيء مُحَبَّب، وأمرٌ يوحي بمحبة العلم، وأن الأسرة مثقفة.

- الكتاب له سمة الديمومة والبقاء فترة زمنية طويلة؛ إذا سَلِم من العاديات، وحظي بالاهتمام الكافي.

- يتميز الكتاب بسهولة المراجعة، دون الحاجة إلى أجهزة مساعدة، ففتح القرص الليزري - مثلاً - يحتاج إلى وجود الحاسوب.

- يخضع الكتاب لمراجعات وتصحيحات كثيرة، فهو قليل الخطأ، سليم اللغة.

---

(١) القراءة أولاً، لمحمد عدنان سالم، (ص٦١).

وثمة سؤال مفاده: هل وسائل الاتصال المسموعة والمرئية تُشكِّل بدائل للكتاب؟.

وللجواب أقول: يمكن توجيه هذه الوسائل (التلفاز، الإذاعة، الصحافة) لتعزيز الدور الإيجابي لها، فتحثُّ على القراءة، وتُبيِّن محاسن الكتاب، وتثير المناقشات الداعمة للصورة الحقيقية للكلمة المكتوبة، والسعي الحثيث والمستمر لعقد الندوات، وإشراك العلماء في حوارات بنَّاءة، تعطي الكتاب أهميته التي يستحقها.

وهذا الأمر يتعلق بدوائر الإعلام، والناشرين، والمراكز الثقافية، والشركات، والمنظمات الاجتماعية المحبة لنشر الثقافة، وترسيخ مكانة الكلمة الصادقة النافعة.

ونحن بانتظار ذلك اليوم؛ الذي تنتهي فيه الأمية، وتنتشر المكتبات في معظم المنازل، ويزداد عدد المقبلين على القراءة، وحينها يمكن أن نقول: نحن بخير حضاري.

★ القارئ الناجح:

كثير من الناس يقرؤون، وبحوزتهم عدد من المصنَّفات؛ لمؤلِّفين من مختلف العصور، فهل نستطيع أن نعدَّهم جميعاً قراء

ناجحين؟ وهل عرفوا سمات القراءة؟ وهل ترتقي قراءتهم إلى مستوى النضج؟..

هذه أسئلة تدور في خَلَد طائفةٍ من الدارسين والباحثين، إلا أننا نستطيع أن نُحدِّد سمات القارئ الناجح **وفْق النقاط التالية**:

أ ـ أن يتبع القارئ القواعد الصحيحة في انتقاء الكتاب؛ من خلال ثقافته، أو اعتماده على مشاورة أهل الاختصاص.

ب ـ **أن يفيد** من تجارب غيره من القراء وملاحظاتهم، ويتعرَّف على أخطائه التي يقع فيها في البداية.

ج ـ **أن تكون** رغبته كبيرة وهو يندفع نحو القراءة، ومتابعة معلومات الكتاب.

د ـ **أن يرتقي** بقراءته إلى مستوى: (القراءة النقدية)؛ ليدرك نقاط القوة والضعف، فيأخذ الحقائق، ويستبعد غيرها.

هـ ـ **أن يتعوَّد** الانفتاح العقلي، ويتطلع لمعرفة الحقيقة، ويحرص على عدم إظهار التزمت، أو التشبث برأيه؛ بحيث يكون ذهنُه منفتحاً على كل تغيير في النتائج، فإنه لا مفرَّ من الاعتراف بالحقيقة ولو كانت فيها مرارة[1].

---

(١) دليل الباحث في المنهجية وكتابة الرسائل الجامعية، لعمار بوحوش، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢، ١٩٩٠م، (ص٨).

و ـ **أن يتأنى** القارئ في إصدار حكمه على الكتاب من النظرة الأولى، ويبتعد عن إعطاء الأحكام المرتجلة، وهذا لا يكون إلا بعد القراءة المتأنية والناقدة، مع إيراد البراهين التي تُثبت صحة الافتراضات الأولية.

ز ـ **أن يهتم** بالوصول إلى الحقيقة، فيبتعد عن الجدال العقيم، والرغبة في التغلب على الأفكار الواردة، والتَّمحُّل في البحث عن نقْدٍ لها؛ لأن الهدف من القراءة هو الوصول إلى الأفكار الصائبة، وعدم الاستعداد المسبق للطعن فيها، وجدال الآخرين من خلالها[١].

ح ـ **أن تكون** القراءة عميقة؛ لتساعد القارئ على تحقيق غرضه من قراءته للنص بفعاليَّة؛ من حيث الفهم والاستيعاب، وهذه القراءة تجعل القارئ واعياً لما يقرأ، ولماذا يقرأ، وهذا لا يكون إلا بقراءة أبعاد النص الثقافية، والاجتماعية، والحضارية[٢].

ط ـ **أن يربط** القارئ بين ما يعرفه مسبقاً عن مادة الكتاب

---

(١) البحث العلمي، لذوقان عبيد ورفيقيه، دار مجدلاوي، عمان، ١٩٨٣م، (ص٣٦ ـ ٣٨).

(٢) مهارات الاتصال، للدكتور أحمد مصطفى حليمة، (ص٧٩).

العلمية أو الأدبية، وبين المادة الجديدة التي يتعلَّمها، وذلك من خلال التفاعل بين المعرفة السابقة واللاحقة؛ مما يساعد على إيجاد جوٍّ من التركيز، والفهم، والاستيعاب.

ي - **أن يقف** القارئُ عند بعض الكلمات أو العبارات الصَّعبة، ليدرك أبعادها، ويُحلِّلها، ويستخلص المعلومات حولها، فهو يعيد النظر والتفكير فيما يقرأ.

ك - **أن يعيد** أفكار الكتاب الذي قرأه، إما بتلخيصها على كُرَّاس معين، أو باسترجاعها عبر الذهن؛ لتثبت الأفكار المطروحة، ويتحقق الهدف المرجوّ من القراءة المبتغاة، ويكون ذلك عبر اليقظة أثناء قراءة الجمل المهمة، والفقرات الرئيسة.

ل - **أن ينوِّع** القارئُ في المصنَّفات التي يقرؤها؛ ليزيد من ثروته الثقافية، ويُغْنِي معارفه، ويُثْرِي رصيده؛ لأن الاقتصار انحسار، والتعدد تجدُّد.

م - **أن يعيد** قراءة الكتاب من جديد إن أحسَّ القارئُ بحاجته إلى الإعادة الكلية، أو إلى أبواب أو فصول محددة.

ن - **أن ينظر** القارئ في فهرس المصادر والمراجع؛ ليستزيد من القراءة في موضوع الكتاب، ويتوسع في طائفة من فقراته.

★ القارئ وجهاً لوجه أمام الغزو الثقافي:

إن من يتتبع ما يُنْشَر هنا وهناك؛ يجد سيْلاً من الكتب في مختلف الموضوعات، منها النافع ومنها الضار، ومنها ما يُخْلَطُ فيه السُّم بالدَّسم، فيقف القارئُ حائراً أمام هذا الكمِّ الهائل مما تنتجه المطابع، ويأخذ مكانه على رفوف المكتبات.

وهذه الظاهرة تدخل في باب (الغزو الفكري للأمة)، فحين وَجَدَت قوى الاستكبار أن الغزو العسكري مكشوف للعيان، فإنهم اتبعوا أسلوب الغزو الثقافي في ميادين التربية، والتعليم، والتشريع، فإذا بأجيالٍ تنظر إلى ماضيها على أنه أنقاضٌ أو مخلَّفات ينبغي أن تستخفي؛ ليحلَّ محلَّها البناء الجديد؛ الذي وضع أعداءُ الأمة حقيقتَهُ، وصُورتَهُ[1].

والهدف الأول للغزو الثقافي يتجه لتشويش الفكر، وزعزعة الانتماء، ومحاربة اللغة، وتقديم لافتات برَّاقة، في ظاهرها الخير، لكن مضمونها الحقيقي أشبه ما يكون بحركة الارتداد عن القيم الفاضلة، والمعاني النبيلة.

وكان الزَّيغ ـ وما يزال ـ متعدد المشارب، يُعْرَض بدهاء

(١) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، لمحمد الغزالي، دار الشروق، مصر، ط١، ١٩٩٨م، (ص ٣٢).

وخُبث، فيأتي عن طريق القصة، والرواية، والمسرحية، والشعر، والمقالة...

ويأتي عن طريق شعارات محببة إلى النفس، كالحرية الشخصية، والحاجة إلى المرأة، والمتعة الخاطفة، والتسلية البريئة...

فالمهم في هذا الغزو الفكري: جعل قيمةٍ مكان قيمة، واهتمامٍ بدل اهتمام، فاستطاع أعداءُ الأمة أن يجرُّوا الكثيرين وراءهم، ويفرضوا عليهم صبغتهم.

ويأتي القارئ ليجد هذه الأكداسَ من الكتابات، وفيها ما فيها، فكيف يختار؟ وماذا ينتقي؟ إنه يودُّ قراءة كتاب مفيد، فقد يُوفَّق إلى ذلك، فيكون النجاحُ حليفه، وقد لا يصل إلى مراده، فيدفع المال دون فائدة، هذا إذا لم يتأثر بما دُوِّن في ذاك الكتاب.. وليس غريباً أن تطلب طائفةٌ من القراء مصنَّفات عن اتجاهات فكرية نَبَذها أهلها، أو يسألون عن كتب التسالي واللهو والنُّكَت، وتفسير الرُّؤى، وقراءة الكف، ومعرفة الأبراج، والزينة والتجميل...ونحوها من الموضوعات التي لا تبني أمة، ولا تشيد حضارة.

إن معاناة القارئ ليست بالأمر الهيِّن، **فهو يقف وجهاً لوجه**

أمام التحدي الثقافي، المراد منه اجتثاث شأفتنا، والقضاء على تاريخنا.

★ ضعف الهمة عن القراءة:

إن ضعف الهمة عن القراءة، وطلب العلم؛ كان سبباً رئيساً في ضياع جزءٍ ليس بالقليل من الثروة الهائلة من المصنفات؛ التي خلَّفها لنا العلماء والسلف الصالح، كما كان للجهل المستحكم، وعدم الوعي المعرفي بقيمتها، وانتشار الحروب المدمرة، والفتن الطاحنة؛ آثار أخرى لا يُستهان بها أبداً.

وقد أنحى الإمام ابن الجوزي باللائمة على ضعف الهمة في اندثار كثيرٍ من كُتُب العلم، فقال: «كانت هممُ القدماء من العلماء عَلِيَّة، تدلُّ عليها تصانيفُهم؛ التي هي زُبْدةُ أعمارهم، إلا أن أكثر تصانيفهم دَثَرتْ؛ لأن هِمَمَ الطلابِ ضعفتْ، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فَدَثَرت الكتبُ، ولم تُنْسَخ»[1].

وكذلك الإمام ابنُ عبد البَرِّ قال وهو يتحدَّثُ عن دروس

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، (ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧).

العلم: «وإن كان ـ لَعَمْري ـ قد درس منه الكثير؛ لعدم العناية، وقلَّة الرعاية، والاشتغال بالدنيا»[١].

وإذا كان هذا القول في عصر العلماء الكبار، أصحاب المصنفات العظيمة، والأيادي البيضاء على العلم والمعرفة، فماذا نقول إذاً في عَصْرٍ قد اجتمع فيه ـ إلى ضعف الهمم، وخَوَر العزائم ـ سَيْلٌ هادرٌ من المُلْهيات والمشغلات عن القراءة، بل عن العلم جُملةً وتفصيلاً؟!.

وللحفاظ على هذه الثروة المعرفية لا بُدَّ أن نضيف إلى صفوف القراء الناجحين عدداً جديداً، يعكفون عليها، ويستجلون فوائدها، فبهذه الطريقة وحدها تنمو كل الوسائل المساعدة (من خَزْنٍ، ورَصْفٍ، ونشر...)، وتكتمل، وسيسعى طلابُ العلم، ورُوَّاد الثقافة تجاه إنماء كل ذلك بدافعٍ ذاتي، واقتناع شخصي؛ لأنهم يصبحون ساعتئذٍ في أمسِّ الحاجة إليها، ومِنْ أَعْرَفِ الناس بقيمتها.

فإذا أَوَجْدَنا القراء الناجحين؛ وُجد معهم كلُّ شيء، وإلا ما قيمة كل تلك الوسائل ولا مستفيد، ولا راغب، ولا طالب[٢]؟!.

(١) جامع بيان العلم، لابن عبد البر، (١/ ٢١).

(٢) المشوق إلى القراءة وطلب العلم، لعلي العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٠هـ، (ص ١٠ ـ ١١).

★ من هموم القارئ:

يحيا القارئ في بيئة الناشر والمؤلف، فليس غريباً عنهم من حيث المعاناة، وملاقاة الهموم، وإن اختلفت قليلاً بين هذا وذاك، فإن القارئ تحيط به طائفة من الهموم؛ التي نجملها في النقاط التالية:

١ ـ **مشكلات الحياة**، وقلة الفراغ، وصعوبة المعيشة...كلها أسباب تحول دون القراءة، أو تُخفِّضها إلى أدنى مستوى لها.

٢ ـ **ارتفاع سعر الكتاب** بالنسبة إلى دخل القارئ على وجه العموم؛ مما يجعل تأمين المال مسألة شبه مستحيلة عند شريحة واسعة من الناس؛ من ذوي الدخل المحدود.

٣ ـ **عدم وجود عادة للقراءة** عند الكثيرين، وندرة الاهتمام بإنشاء مكتبة منزلية، أو الذهاب إلى المكتبات العامة.

٤ ـ **تَدَافُع المبادئ والأفكار والمناهج** المختلفة في قسمٍ من المؤلَّفات؛ مما يجعل القارئ في حيرةٍ من أمره، فماذا يشتري؟ وماذا يقرأ؟ وكيف يُمَيِّز الغثَّ من السمين؟.

٥ ـ **قسم من الكتب المطبوعة يصلح لوضعه في المتاحف**، فلا يمكن للقارئ العادي أن يفهمه، أو يدرك مضمونه، وكان اللهُ في عون طلاب العلم وهم يواصلون الليل بالنهار ليفكّوا الطلاسم، ويستوعبوا المعاني.

٦ ـ قسم من المصنفات المنشورة لايجد فيها القارئ ما يفيده، أو يُحلِّل واقعه، أو يعطيه حلولاً منطقية لمشكلاته الواقعية، بينما تحرص بعض المكتبات على طباعتها وتوزيعها؛ على الرغم مما فيها من تهاويل، وخرافات، وإغراق في طلب الشهوة، والدعوة إلى الانحراف، ومناوأة الفضيلة...

٧ ـ تكرار الطبعات لدى دور النشر للكتاب الواحد، ولا اختلاف بين هذه الطبعة وتلك؛ إلا من حيث الغلاف الخارجي، ولون الورق، وحجم الحرف...

وغير ذلك من الهموم؛ التي تحول دون الإقبال على القراءة، وتجعل القارئ يفكّر ألف مرة قبل أن يمدَّ يده إلى جيبه ليدفع بعض ما ادَّخره ثمناً لكتابٍ يريد أن يعرفَ محتواه، ويدركَ ما بين طواياه.

الباب الأول
المعايير الأخلاقية والقيم النبيلة
التي تُزيِّن القارئ

القارئُ الناجح يمتلك جُملةً من السِّمات المميزة؛ ويتحلى بالأخلاق الفاضلة، والسجايا الحميدة، فهو يمسك بالكتاب، ويقرأ ما بين السطور، وكفاه بهذا مكانة، وسموّاً، ورفعة.

ومن تلك المنظومة الأخلاقية التي يتحلى بها القارئ الناجح:

١ ـ الإخلاص	٢ ـ الأدب	٣ ـ الصدق
٤ ـ التواضع	٥ ـ الاقتصاد	٦ ـ العفة
٧ ـ الشكر	٨ ـ الأمانة	٩ ـ المشورة
١٠ ـ الإنصاف	١١ ـ الرِّفق	١٢ ـ العلم
١٣ ـ الوفاء بالعهد	١٤ ـ الصبر	١٥ ـ التناصح
١٦ ـ الحلم وكظم الغيظ		١٧ ـ القناعة
١٨ ـ الرجوع إلى الحق		١٩ ـ طلاقة الوجه

بين يدي البحث

تتعدد حاجاتُ الإنسان، وتتنوَّع، ولها سُلَّم متدرِّج، يُقرِّب منه العاقل الحاجة الأكثر أهمية، والأعظم لصوقاً بحياته ومنافعه، وتأتي الثقافة والقراءة في المحلِّ الأرفع، فهي مفتاح الشخصية، وسِرُّ التقدم، وأسّ الحضارة، والخطوة الأولى في المعيار الصحيح؛ الذي يُقاس به الإنسان، فبمقدار ما يقرأ، ويتمثَّل الأخلاق، ويحسنُ سلوكُه، ويصفو تعامله في البيئة التي يحيا فيها؛ فإنه يلجُ باب الإنسانية والحضارة الراقية.

إن الالتزام بالأخلاق والشمائل الحميدة له مرتبة الصدارة؛ لاسيما عند المهتمِّ بالثقافة، والطالب للمعرفة، فالعلم والخُلُق وجهان لِدُرَّة واحدة، لا ينفصل أحدُهما عن الآخر.

ومن تلك المعايير الأخلاقية، والقيم النبيلة؛ التي يتصف بها القارئُ الناجح:

١ ــ الإخلاص

القارئ الناجح مخلص في حياته، وأقواله، وأعماله؛ لأن

الإخلاص سبيل إلى الخير والصلاح والصواب، فكل عمل لا إخلاص فيه لا نفع يُرتجى منه، وإن درَّ ربحاً، أو أثمر نتيجة؛ لأن القارئ يمسك بالكتاب، ويقرأ الحرف المقدَّس، فيصحِّح نيته، ويلتزم بالمبادئ الضابطة، والقيم الفاضلة.

والذي يقرأ، ويدرك مغزى قراءته، ويفيد من ذلك في مجريات حياته، فإنه يدخل في صنف طلاب العلم، وهؤلاء لهم مكانة رفيعة سامية.

قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه عِلْماً سَهَّلَ اللهُ له به طريقاً إلى الجنة**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ طالبَ العلم لتحفُّه الملائكةُ بأجنحتها، ثم يركبُ بعضُهم بعضاً حتى يبلغُوا السَّماء الدُّنيا من محبَّتهم لما يَطْلُب**»(٢).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩)، وأبو داود في سننه (٤٩٤٦)، والترمذي في سننه (١٩٣٠)، وابن ماجه في السنن (٢٢٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (٤/ ٢٣٩)، وابن ماجه في السنن (٢٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٨٥و١٣٢٢).

والمخلص مُوفَّق في سلوكه وتعامله، يحبه الناس ويحبهم، ويثقون به، ويحرصون عليه، **فكرامة الإنسان تتحدد بالقراءة**، قال ﷻ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣].

فثمَّة ارتباط وثيق بين القراءة وكرم الله، فمن يقرأ يستمدّ كرامته من ربه الأكرم، حيث سما به علْمُه، وارتقت به قراءته.

وأول أبواب العلم: الإخلاص، فالقارئ الناجح مخلص إلى أبعد حدّ، ملتزم بالفضائل والشمائل، فهو شامة بين الناس، يُعرف بسلوكه، وحُسْن تعامله، قبل أن يُعرف بأقواله وكلماته.

٢ ــ الأدب

القارئ الناجح يتميز بأدبه، ويتصف بأحسن صفات الكمال، وينأى عن الرذائل والنقائص، بحيث يكون في جميع أحواله ومعاملاته في المجتمع الإنساني؛ على مقتضى العقل الكامل، والذوق السليم، فلا يصدر منه ما يوُجِبُ الذَّم واللوم، ولا يقع منه ما يحطُّ من قَدْرِه[١].

قال الكُرَيْزيُّ[٢]:

---

(١) فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، لأحمد سعيد الدجوي، تحقيق عبد الرحيم مارديني، مكتبة دار المحبة، دمشق، ط١، ١٩٩١م، (ص٣).

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان، تحقيق عبد العليم الدرويش، وزارة =

والناسُ صنفانِ: ذو عقل وذو أَدَب

كمَعْدِن الفِضَّةِ البيضاءِ والذَّهَبِ

وقال آخر[1]:

أَدَبُ المرءِ كَلَحْمٍ ودَمٍ

ما حواهُ رجلٌ إلا صَلَحْ

لو وَزَنْتُمْ رجلاً ذا أَدَبٍ

بألوفٍ من ذوي الجَهْلِ رَجَحْ

وتتجلى القراءة في حياة القارئ الناجح حين تنعكس عليه خُلُقاً يُزيِّنه، وأدباً يُجَمِّله، فهو أديبٌ بقوله وفعله وحاله، لا يخرج عن حدود اللياقة قِيْدَ أُنملة؛ لأنه يدرك أن **الأدب أساس في حياته**، ينبغي أن يستظلَّ بأفيائه؛ كي يعكس المعايير الأخلاقية على مجمل شؤونه كلها.

ولله درُّ ابن حبان البُستي إذ يقول:

«الأدبُ صاحبٌ في الغُربة، ومُؤْنِسٌ في القِلَّة، ورِفْعةٌ في

= الثقافة، دمشق، (٢٠٠٩م)، (٢/ ٨٠٢).

(١) المصدر السابق، (٢/ ٨٠٧).

المجالس، وزَيْنٌ في المحافل، وزيادة في العقل، ودليل على المروءة[١].

٣ ــ الصدق

القارئ الناجح يلزم الصدق في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل، انطلاقاً من قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

والعاقل يُعوِّدُ لسانه النطقَ بالخبر الصادق، ويداوم عليه، ويأمر غيره به، فهو مرتكز التربية، ومحور الفضائل.

وعن إسماعيل بن عبيد الله (مؤدب آل عبد الملك بن مروان) قال:

كان عبد الملك بن مروان يقول: عَلِّمْ بَنِيَّ الصِّدْقَ كما تُعلِّمهم القرآن[٢].

والقارئُ الناجح يصدق في تعامله، لأنه قد أدرك من خلال ما يقرأ أن الصدق فضيلة، وأن نتائج الكذب غير محمودة.

---

(١) المصدر السابق، (٢/ ٨٠٢).

(٢) رواه ابنُ أبي الدنيا في كتاب العيال، تحقيق مسعد السعدني، مكتبة القرآن، مصر، (٣٣٨).

قال أبو العتاهية داعياً إلى امتثال الصدق، وبيان ثمراته الحِسان:

والصِّدْقُ يعقدُ فوق رأ

سِ حليفِه للْبِرِّ تاجا

والصِّدْقُ يَثْقُبُ زَنْدُهُ

في كُلِّ ناحيةٍ سِراجا[1]

ومن المعروف أن الصدق هو: القول بما يطابق الحقيقة والواقع، من غير تبديل، ولا زيادة، ولا نقصان، ولولاه لانْتُزِعتْ ثقةُ الناس بعضهم من بعض، ولما وصل إليهم شيءٌ من الحقائق، فالصدق رأس الفضائل، وأسُّ المروءة، مَنْ تحلَّى به كمُلتْ صفاتُه، وسَمَتْ أخلاقُه، وتحققتْ معه آماله[2].

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصِّدْقَ يهدي إلى البر، وإن البِرَّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجلَ ليصدق حتى يُكتبَ عند الله صِدِّيقاً. وإيَّاكم والكذبَ؛ فإنَّ الكذب**

(١) أبو العتاهية ـ أشعاره وأخباره، تحقيق الدكتور شكري فيصل، دار الملاح، دمشق، (ص٩٤).

(٢) فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، (ص٢٢).

يهدي إلى الفُجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجلَ ليكذبُ حتى يُكتبَ عند الله كذاباً»[١].

٤ ــ التواضع

التواضع خُلُق رفيع، يجعل النفس تميل نحو الودّ والتعاون، وترك الترفُّع والتكبر، **فإذا بالقارئ الناجح يحترم الناس مهما تباينت درجاتهم**، واختلفت شرائحهم ومشاربهم.

فالمتواضع محبوب، وهو بهذا الخُلُق الحميد يضع على رأسه تاجاً من حيث لا يشعر، ثم إنَّ التعامل مع الآخرين يتطلب قدراً كبيراً من حُسْن الخُلُق.

والمتكبر يُسيء إلى نفسه قبل أن يسيء إلى الطرف الآخر. قال أحمد بن محمد بن مختار المعدل[٢]:

كم جاهلٍ متواضعٍ
سَتَرَ التَّواضُعُ جَهْلَهُ
ومُمَيَّزٍ في علمهِ
هَدَمَ التَّكبرُ فَضْلَهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٥/ ٦١).

فَـدَعِ الـتـكـبـرَ مـا حـيـيـتَ
ولا تُـصـاحـبْ أَهْـلَـهُ

فـالـكـبـرُ عـيـبٌ لـلـفـتـى
أبـداً يُـقَـبِّـحُ فِـعْـلَـهُ

ويتصف القارئُ الناجح بالتواضع؛ فهذا الخُلُق السامي يُكْسِبُ السلامة، ويُورِثُ المحبة، ويدفعُ الحقد، ويُذْهِبُ الصَّدَّ. وثمرةُ التواضعِ: المحبةُ، كما أن ثمرة القناعة: الراحة[1].

٥ ــ الاقتصاد

من الأخلاق المحمودة التي ينبغي للقارئ الناجح أن يتصف بها: الاقتصاد في الإنفاق، فهو منهج قويم، وميزان عادل، يقف فيه المرء بين التقتير والتبذير.

والقارئ الناجح لابُدَّ له أن يوفِّر المال اللازم بين الحين والآخر؛ ليدفع ثمن الكتب التي يودُّ الاحتفاظ بها للقراءة، والتزود من المعارف.

والاقتصاد منهج واضح في كتاب الله ﷻ، حيث امتدحَ به

(١) روضة العقلاء، لابن حبان، (١/ ٢٨٠).

عباد الرحمن بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال رسولُ الله ﷺ: «**الهَدْيُ الصالح، والسَّمْتُ الصالح، والاقتصادُ: جُزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة**»[(١)].

ويقوم القارئُ الناجح بتحقيق المعادلة بين المال والعيال، فيوازن بين ما وهبه الله من العيال، وما قسم له من المال، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها، بل يلتزم منهج الاقتصاد؛ لأنه قمة السلوك الحسن، وطريق النجاح الأكيد[(٢)].

قال الشاعر:

أنفقْ بقدر ما استفدتَ ولا
تُسْرِفْ وعِشْ فيه عيشَ مقتصدِ
مَنْ كان فيما استفاد مقتصِداً
لم يفتقرْ بعدها إلى أحدِ

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، دار الصِّدِّيق، السعودية، ط٢، ٢٠٠٠م، (٧٩١).

(٢) وصايا الرسول ﷺ، لعطية محمد سالم، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط٣، ١٩٩١م، (ص ١٣٠).

٦ ــ العفة

العفة شرط من شروط القراءة الهادفة، وسمة بارزة في حياة القارئ الناجح، فهو يمتنع عن قراءة الكتب الماجنة، والمستهترة بالقيم والمبادئ، والداعية إلى الإباحية والمجون.

ولم تكن العفة ـ يوماً من الأيام ـ حلية العاجزين، أو تعلَّة المحرومين، وإنما كانت حلية الرجال، ومفخرة من مفاخر الأبطال.. فهذا عنترةُ بن شداد يغضُّ نظره إنْ مرَّتْ به جارتُه حتى يُواريها بيتُها، يقول:

وأغضُّ طَرْفي ما بدتْ لي جارتي
حتى يُواري جارتي مأواها[1]

وهذا الخُلُق الحميد يجري في حياة القارئ الناجح، فيكفُّ نفسه عن قراءة الموبقات والمنكرات، ولا يُلوِّث نظره بأمثال هذه المبطلات؛ فلا خيرَ فيها ولا نفع، ولا طائلَ تحتها، ولا جدوى منها، إلا تحقيق أهداف دنيئة تكمن وراء نشر مثل تلك الأضاليل والسوءات.

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، للدكتور أحمد الحوفي، دار القلم، بيروت، (ص٣٦٤). والبيت الشعري في ديوان عنترة، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٤م، (ص٣٠٨).

كذلك فإن **القارئ الناجح يناصر المعايير الأخلاقية، ويضبط سلوكه وأقواله** بضوابط رادعة، فيصون نفسه، ويستكمل مروءته، فهو عفيف في السر والعلانية؛ لأنه صادق، فاضل، مُجسِّد لفضائل الأخلاق أينما حلَّ أو ارتحل.

قال الشاعر:

ما الحظُّ إلا امتلاكُ المرءِ عِفَّته

وما السعادةُ إلا حُسْنُ أخلاقِ

٧ ــ الشكر

يحيا القارئُ الناجحُ ضمن مجموعةٍ من الناس، ذوي علاقة متشابكة، كأقاربه، وأصدقائه، وناشري الكتب، والمؤلِّفين... فهو يقدِّم لهم الشكر على إهدائهم له بعض المصنَّفات، وتوفير الكتاب الجيد، والمتعدد المعارف، إلى جانب الكتاب المتخصص في فرعٍ من فروع الآداب أو العلوم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وبين رسولُ الله ﷺ ضرورةَ شكر الناس، ومجازاتهم على حُسْن صنائعهم، فقال: «**من لا يشكر الناسَ لا يشكر الله**»[(١)].

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢١٨)، والترمذي في سننه (١٩٥٤)، =

وينطلق القارئُ الناجح من مبدأ أن الواجب على مَنْ أُسْدِي إليه معروف؛ أن يشكره بأفضلَ منه أو مثله؛ لأن الإفضالَ على المعروف في الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإنْ قلَّ، وما استغنى أحدٌ عن شُكْرِ أحد[١].

وقال الشاعر:

حافظْ على الشكرِ حتى تَجْزِلَ القِسَما
مَنْ ضَيَّعَ الشكرَ لم يستكملِ النِّعَما
الشكر لله كنزٌ لا نفادَ له
مَنْ يلزمِ الشكرَ لم يكسبْ به نَدَما

٨ ــ الأمانة

يتميز القارئُ الناجح بخلق الأمانة، فيرعى حقوقَ المادة المقروءة، فالكتابُ عصارةُ الفكر الإنساني، وتراث الأجيال، بذل فيه المؤلِّفُ الكثيرَ من وقته وجهده وتجربته ومعاناته، وبذل الناشرُ في إخراجه وأناقته الكثير من الزمن والمال والخبرة؛ كي يلقى قبولاً لدى القراء، ويدل على عناية الدار الناشرة[٢].

= والطيالسي في مسنده (٢٤٩١).

(١) روضة العقلاء، لابن حبان، (٢/ ٩٣٧ ـ ٩٣٨).

(٢) القراءة أولاً، لمحمد عدنان سالم، (ص١٥٤).

إن هذه الجهود تتطلب من القارئ الناجح أن يتعامل معها بمنتهى الأمانة، فيتعرف على أفكار الكتاب بوعي ودون تحامل، مع الاهتمام بالمعلومات الواردة، وغربلتها عن طريق التقويم، وتبني الفكرة الصالحة، والكشف عن مبالغات المؤلف وتناقضاته إن وُجِدَتْ.

ومن الأمانة أن **يقوم القارئ الناجح بشرح أفكار الكتاب الهادف لمن يجالسهم، ويحادثهم**، فينقل المعلومات بشكل صحيح، ويثير عندهم الرغبة للاطلاع عليهم، ويحفزهم على مطالعتها، والوقوف عندها بحرفيتها.

وينطلق القارئ الناجح في خُلُق الأمانة من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقول رسول الله ﷺ: «**لا إيمانَ لمن لا أمانة له**»[1].

٩ ــ المشورة

تأخذ القراءةُ أهميتها من صعوبة اختيار الكتاب، والتفكير فيه قبل الإقدام على شرائه، أو استعارته؛ لأن معرفة المضمون أمر أساس في هذه القضية.

---

(١) يُنظر الحديثُ في صحيح الجامع الصغير، للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، برقم (٧١٧٩).

ويستطيع القارئ الناجح أن يستشير أهل الاختصاص قبل إقدامه على اقتناء كتابٍ معيَّن، فهم أدرى به، وأكثر إدراكاً لمضمونه، وهذا من باب قول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال الشاعر:

فـدبِّـرْ إذا مـا رُمْـتَ أمْـراً بـفـكـرةٍ
لـتـعـلـمَ مـا تـأتـي ومـا تـتـجـنَّـبُ

وشـاوِرْ نَـقِـيَّ الـرَّأي عـنـد الـتـبـاسِـه
لكي يَضِحَ الأمرُ الذي هو أَصْوَبُ[1]

والواجب على القارئ الناجح أن يشاور عاقلاً، ناصحاً، ذا رأي، ثم يطيعه، وليعترفْ للحق عند المشورة، ولا يتمادى في رأيه[2].

وقد قيل: الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى بنفسه.

والمشورة باب رحمة، ومفتاح بركة، لا يضل معها فكر، ولا يُفْقد حَزْم.

---

(١) روضة العقلاء، لابن حبان، (٢/ ٧٣٢).
(٢) المصدر السابق، (٢/ ٧٣٦).

ويمكن للقارئ الناجح أن يستشير ليتعرف على أنواع القراءة؛ ليكتسب المزيد من المهارات، فهناك القراءة البطيئة، والقراءة السريعة، والقراءة الوسطى بينهما؛ حسب العلم الذي يُقْرأ، وطريقة الاستيعاب وفهمها عند القارئ نفسه.

فقد قرأ أسعد بن محمد الشيرازي (ت٨٠٣هـ) (صحيح البخاري) على شمس الدين الكرماني أكثر من عشرين مرة؛ لكثرة فوائده، وغزارة مادته العلمية[١].

بينما قرأ البرهان الحلبي (ت٨٤٠هـ) (صحيح البخاري) أكثر من ستين مرة، و (صحيح مسلم) نحو العشرين، سوى قراءته لهما في زمن الطَّلَب، أو قراءتهما منْ غيره عليه[٢].

وقال الشيخ العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت ١٣٩٨هـ) عن نفسه: «قرأتُ معجم الأدباء لياقوت على الأقل سبع أو ثماني مرات، وأفضِّلُه على كتاب: (وفَيات الأعيان)»[٣].

وقد اشتهر أحمد بن عمر الناشري اليماني بمعرفة كتاب

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف العثمانية، (٤/ ٢٦٣).
(٢) الضوء اللامع، للسخاوي، (١/ ١٤١).
(٣) مجلة المجمع العلمي الهندي، (١٠/ ٣٥٥).

«الوسيط» للغزالي، وهو في فقه الشافعية، حتى كان يعرفُ أين مكان المسألة فيه، وفي أيِّ صفحة هي، بعد أن أُصيب بالعمى[١].

١٠ ــ الإنصاف

القارئ الناجح عادل منصف مع نفسه وكتبه وغيره، فهو يُنْصِف نفسه إذ يحملها على طلب العلم، والسير وفق المنظومة الأخلاقية، وتوجيه السلوك نحو الجادة القويمة دون انحراف أو تشويه.

وهو أيضاً يُنصف الكتب التي يقرؤها، فيعطي لكل كتاب حظَّه من الزمن والجهد، وتقييد الفوائد، وتدوين الأفكار المتميزة، فيحصل له بعد مدة كتاباً في الحِكَم، والفرائد؛ غير مجموعة في كتابٍ واحد، ويا له من صيد وافر لا يُقَدَّر بثمن!.

وكذلك فإن **القارئ الناجح لا يظلم الآخرين** ـ كالناشر والمؤلِّف ـ، بل يُنصفهم في الحكم، ويبتعد عن الهوى في التقييم، وإبداء الآراء، فهو نزيه من الطراز الأول.

قال أبو العتاهية:

---

(١) هِجَر العلم ومعاقله في اليمن، للقاضي إسماعيل الأكوع، دار الفكر، (٤/٢١٦٧).

لا تمشِ في الناسِ إلا رحمةً لهمُ

ولا تعاملهمُ إلا بإنصافِ

وارغبْ بنفسكَ عما لا صلاحَ له

وأوسعِ الناسَ من برٍّ وإلطافِ[١]

وقال المتنبي:

ولم تزلْ قِلَّةُ الإنصافِ قاطعةً

بينَ الرجالِ ولو كانوا ذوي رَحِمِ[٢]

١١ ــ الرِّفْق

من مستلزمات المعايير الأخلاقية لدى القارئ الناجح: **أن يكون رفيقاً، ليِّن الجانب، بعيداً عن القسوة والغِلْظة**؛ فالرِّفقُ من دواعي الألفة، وقواعد التواصل مع الآخرين، وسببٌ لنشر السلام في المعاملة، والوئام في العلاقة، ونشر السعادة فوق رؤوس المتواصلين.

---

(١) أبو العتاهية. أشعاره وأخباره، تحقيق الدكتور شكري فيصل، (ص٢٤١).

(٢) ديوان المتنبي، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٥م، (ص٤٩٧).

والرفق محمود، واللِّينُ نتيجة حُسْن الخُلُق، ولا يحسن الخُلُقُ إلا بضبط قوة الغضب، وحِفْظها على حدِّ الاعتدال[١].

وقد أثنى رسولُ الله ﷺ على الرِّفق، وبيَّن أهميته، وأعلى مكانته، فقال: «**مَنْ أُعطي حَظَّهُ من الرفق؛ فقد أُعطي حظَّه من خير الدنيا والآخرة، ومنْ حُرِم حظَّه من الرفق؛ فقد حُرِمَ حظه من خير الدنيا والآخرة**»[٢].

والقارئ الناجح رفيق في أقواله وتعامله وسلوكه، فهو مثقف، مطَّلع على أبواب الخير، قد سَمَتْ نَفْسُه، وترفعت عن الشدة والعنف، وحلَّقت عالياً في معارج السماح والشفقة، فطهر قلبه، وطمح إلى العُلا، وسلم صدره من الغلّ والضغينة، فإذا به يرفرف عالياً بسموّ نفسه، ونُبل أخلاقه، وسلامة صدره، وسماحة وجهه.

قال أميرُ المؤمنين المتوكل على الله:

الـرفـقُ يُـمـنٌ والأنـاةُ سـعـادةٌ

فـاسـتـأنِ فـي رفـقٍ تُـلاقِ نـجـاحـا[٣]

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠١م، (ص٢٩٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦/ ٤٥١)، والترمذي في سننه (٢٠١٣).

(٣) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، (٧/ ١٦٦).

وقال آخر:

وعليكَ في بعضِ الأمور صُعوبةٌ
والرِّفْقُ للمستصعباتِ مِرَانُ
وبِحُسْنِ عقلِ المرءِ يثبتُ حالُهُ
وعلى المَغَارِسِ تُثْمِرُ العِيْدانُ[1]

١٢ ــ العلم

لا شيء كالعلم يرفعُ القارئ الناجح، ويسمو به درجات عُلْيا، حتى إن النبي محمداً ﷺ كُلِّف بأن يدعو بزيادة العلم، قال ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. قال ابن القيم: «وكفى بهذا شرفاً للعلم؛ أن أمرَ نبيَّه أن يسأله المزيد منه»[2].

وكان عبد الله بن مسعود إذا تلا هذه الآية يقول: اللهم زدني علماً، وإيماناً، ويقيناً[3].

ولا يقف العلمُ عند حدّ معين، ولا عند فرع محدَّد، فالقارئ الناجح ينوع قراءاته، ويستزيد من فروع المعرفة، ويُوسِّع

(١) روضة العقلاء، لابن حبان، (٢/ ٧٩٨).
(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، تحقيق علي عبد الحميد، دار ابن عفان، (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).
(٣) الدر المنثور، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، (٤/ ٥٥٣).

اطلاعه، حتى يوافيه الأجل وهو يطلب العلم، ويقرأ المصنفات الرائدة، ذات القيمة والأهمية.

وكيف به لا يطلب المزيد من العلوم؟! وهو يسمع قولَ ابن الخشاب النحوي الحنبلي (ت٥٦٧هـ): «إني متقن في ثمانية علوم، ما يسألني أحدٌ عن علمٍ منها، ولا أجد لها أهلاً»[١].

وقال الماورديُّ ـ وهو يرشد الطالب ـ: «ولا يقنعُ من العلم بما أدرك؛ لأن القناعة فيه زهد، والزهد فيه ترك، والترك له جهل»[٢].

وقال الشاعرُ في طلب العلم، والتزود بالمعرفة، وعدم الاقتصار على شُعْبة محدودة من شعب العلم الواسعة والكثيرة:

احرصْ على كل علمٍ تبلغِ الأملا
ولا تُواصلْ لعلمٍ واحدٍ كَسَلا

النحلُ لما رَعَتْ من كلِّ فاكهةٍ
أبدتْ لنا الجوهرين: الشمعَ والعَسَلا

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب، (١/ ٣١٧).
(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق شريف سكر ورفيقه، دار إحياء العلوم، بيروت، (ص١٢٥).

الشمعُ بالليل نورٌ يُستضاءُ به

والشَّهْدُ يُبري بإذن البارئ العِلَلا[١]

وليقف القارئُ الناجحُ متأملاً، متمعناً قول سلمان بن عبد الحميد الحنبلي، وهو من شيوخ الحافظ ابن حجر العسقلاني، وقد لامته زوجتُه لكثرة شراء الكتب، فقال:

وقائلةٍ أنفقتَ في الكُتْبِ ما حَوَتْ

يمينُكَ من مالٍ، فقلتُ: دَعِيْني

لعلِّي أرى فيها كتاباً يَدُلُّني

لِأَخْذِ كتابي آمِناً بيميني[٢]

١٣ ــ الوفاء بالعهد

يُعَدُّ الوفاءُ بالعهد من الأخلاق الحميدة النادرة لدى كثير من الناس، فهو يتطلب عزيمة راشدة، وحَزْماً أكيداً، وإلزاماً للنفس كي تفي بالوعد الذي قطعته، وتقهر الأعذار، ولا تلتمسها إلا عندما تكون حقيقية مئة بالمئة.

---

(١) درة الحجال في غرة أسماء الرجال، للمكناسي، تحقيق محمد الأحمدي أبو الأنوار، (٣/ ٤٩).

(٢) المجمع المؤسِّس للمعجم المفهرس، لابن حجر، تحقيق يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، (١/ ٦٠١).

والقارئ الناجح يفي بعهده، فمشاعره حية، وقلبه يقظ، وعقله يلبِّي نداء الإيمان، فيندفع بكُلِّيَّته ليستجيب لقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤]، فهو يقف عند الكلمة التي قالها، ويحترم نفسه، ويُقدِّر الآخرين، ويعاملهم بمبدأ الالتزام والوفاء.

ويرتبط الوفاءُ بالعهد بالاستقامة، والثقة، ونظافة الضمير؛ فالتعامل بين الناس ينبغي أن يرتقي ويتعزَّز من خلال الحقائق الأخلاقية، وتسخير طاقة الإنسان لتحقيق الاستقامة، والاعتصام بإرادة الخير، وهي سِرٌّ من أسرار الخُلُق الحميد، وثمرة يانعة من ثمار القراءة الهادفة.

والصدق في الوعد وفي العهد من الفضائل الحميدة التي يتحلى بها القارئ الناجح؛ ليعكس أثر قراءته على تعامله مع الآخرين، وفي هذا ارتقاء إلى معارج البِرِّ، وهي من سمات المؤمنين، تحقيقاً لقول الله سبحانه: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]. ويدخل الوفاء بالعهد ضمن السلوك الاجتماعي، وقاعدته تتلخص بأن يعامل الإنسانُ الآخرين بما يحبُّ أن يعاملوه به، وفي هذا إنصاف، وانسجام مع روح الاحترام في المجتمع، والتعايش على أساسٍ حضاري يقوم على

مكارم الأخلاق، والآداب الرفيعة، وضبط السلوك وتوجيهه وَفْق العقل السليم، والدِّين القويم.

١٤ ــ الصبر

يُعرف القارئُ الناجح بصبره، وقدرته على التحمل، وتجلُّده في مواجهة المشقات والصعاب؛ التي تعترض حياته.

والصبر جُماع كل أخلاق الكبار ـ ومنهم القارئ الناجح ـ، وهو أساس الانطلاق للتحلي بالأخلاق الفاضلة جميعها، ذلك أنه ما من خُلُق إلا وهو في حاجةٍ إلى الصبر حتى يتزيَّن بحليته، ويتخلَّق به[١].

والقارئ الناجح لا يفقد توازنه إذا أحاطت به الصعاب، ولا يجزع إذا ما الأزمات أصابته، فالثبات والرضا والاحتساب من شيمته، وذلك لحسن يقينه، ومحافظته على حُسْن تصرُّفه، وصحته.

وأشقُّ ما يعاني منه القارئ الناجح هو اضطراره لبيع بعض كتبه أو كلها، فقد ذكر ابنُ خلِّكان في ترجمة الشريف المرتضى علي بن الطاهر (ت ٤٣٦هـ) قال: «حكى الخطيب أبو زكريا

(١) أخلاق الكبار، لمحمد عبده، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، (ص ٢١٤).

يحيى بن علي التبريزي اللغوي؛ أن أبا الحسن علي بن أحمد بن علي بن سَلَّك الفابي الأديب؛ كانت له نسخة من كتاب (الجمهرة) لابن دُرَيْد في غاية الجَوْدَة، فدعته الحاجةُ إلى بيعها فباعها، واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم بستين ديناراً، وتصفَّحها، فوجد فيها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفابي، وهي:

أنستُ بها عشرينَ حَوْلاً وبِعْتُها
لقد طال وجْدي بعدها وحنيني
وما كان ظَنِّي أنني سأبيعُها
ولو خلَّدتني في السُّجونِ دُيوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصِبْيةٍ
صِغارٍ عليهم تَستَهلُّ شُؤوني»[1]

كما يصبر القارئُ الناجح على مشقة القراءة والمطالعة، فقد قال السخاوي في ترجمة محمد بن أحمد بن محمد العمري الضَّغاني (ت٨٥٤هـ): «كان عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء،

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الفكر، بيروت، (٤/ ١٦٥).

وبلغني عن أبي الخير بن عبد القوي أنه قال: أعرفه أَزْيَدَ من خمسين سنة، وما دخلتُ إليه قطُّ إلا ووجدتُه يطالع، أو يكتب»[١].

وقال في ترجمة أحمد بن علي الهيتي الشافعي (ت٨٥٣هـ): «كان لا يملُّ من المطالعة والاشتغال»[٢].

١٥ ــ التناصح

القارئ الناجح يسمع النصيحة، ويأخذ بها، كما أنه يُؤدِّيها في الوقت المناسب بشروطها، فهو يريد الخير لنفسه ولغيره، فتراه يقوم بهذا الواجب بعد أن يُطبِّق ما ينصح به على حياته، ولا يقدر على ذلك إلا أصحاب النفوس الكبيرة، فصدره رحب لقبول النصيحة، ونفسه تستوعب قول الحق وتقبله؛ مما يدل على نضوجه الروحي والفكري، في حالتي الأداء والاستقبال.

هو يحب للناس ما يحبه لنفسه؛ لذا ينصحهم، ويحرص على إيصال الخير إليهم بكل ما يستطيع من جهد؛ لِما للنصيحة من أثر فعَّال لتصحيح المسار، وسدّ الثغرات، وعلاج العيوب، فإن منْ

(١) الضوء اللامع، للسخاوي، (٧/ ٨٤ ـ ٨٥).
(٢) المصدر السابق، (٢/ ٦).

أراد الكمال في أمرٍ ما، لابدَّ له من معرفة آراء مخالفيه؛ كي يتفادى الوقوع فيها.

والنصيحة وسيلة للمراجعة والتصحيح، كيلا يسترسل الإنسانُ في الخطأ الذي وقع فيه، أو الهوى الذي انساق إليه، فالنصيحة بمثابة وقفةٍ مع النفس لمراجعتها، والسير على بصيرة[1].

فالقارئ الناجح يقرأ ويفيد الآخرين، فلا يقتصر على نفع نفسه فحسب، بل يؤدي واجب التعليم حتى وهو في اللحظات الأخيرة من حياته.

ذكر القرشي في ترجمة إبراهيم بن الجراح التميمي ـ تلميذ أبي يوسف القاضي، وآخر مَنْ روى عنه ـ، قال: «أتيتُه أعوده، فوجدتُه مغمى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم! أيهما أفضل في رمي الجمار، أن يرميها الرجلُ راجلاً أو راكباً؟ فقلت: راكباً. فقال: أخطأت. قلت: ماشياً. قال: أخطأت. قلتُ: قُلْ فيها، يرضى اللهُ عنك. قال: أمَّا ما يُوقَفُ عنده للدعاء؛ فالأفضل أن يرميه راجلاً، وأما ما كان لا يُوقَفُ عنده؛ فالأفضلُ أن يرميه راكباً.

---

(١) أخلاق الكبار، لمحمد عبده، (ص٣٣).

ثم قمتُ من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصُّراخَ عليه، وإذا هو قد مات، رحمه اللهُ تعالى»[١].

ويعود ذلك إلى الهمة العالية السامية لدى هذا العالم وأمثاله. يقول ابن الجوزي:

لي هِمَّةٌ في العلم ما إنْ مثلُها
وهي التي جَنَتِ النُّحُولَ هي التي
خُلِقتْ من العِلْق العظيمِ إلى المُنى
دُعيتْ إلى نَيْلِ الكمالِ فلبَّتِ[٢]

١٦ ــ الحلم وكظم الغيظ

إن كثرة المطالعة، واستمرار القراءة، تشحن العقل بوافر العلم والمعرفة، وتُهذِّب النفس بمزيد من الضوابط الأخلاقية، **فإذا بالقارئ الناجح يملك نفسه عند الغضب، ويكبح جماحها؛** فيسلم ويسلم معه الآخرون، فالحلم سيد الأخلاق؛ لأنه يرقى

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية، للقرشي، تحقيق الحلو، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١/ ٧٦).

(٢) ذيل الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة المقدسي، دار الجيل، بيروت، (ص٢٥).

بصاحبه في سلَّم الكمالات، ويهبه جميل الخصال، ويسمو به في أنظار الناس.

قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: عَلِّمني شيئاً يا رسول الله أدخل به الجنة، ولا تُكثرْ عليَّ لعلِّي أعقل. قال: «**لاتغضب**»[(١)].

وقال الشاعر:

تـأنَّ فـي أمـرِكَ وافـهـمْ عـنِّـي
فـلـيـس شـيءٌ يـعـدلُ الـتَّـأنـي
تَـأنَّ فـيـه ثـم قُـلْ فـإنِّـي
أرجـو لـكَ الإرشـادَ بـالـتَّـأنـي[(٢)]

وقد يحاول سفيه ما أن يتطاول على محب القراءة، والمنهمك بها، فإذا بالقارئ يحلمُ عنه، ويقابل ذلك بضبط النفس، والصفح، والإعراض عنه.

قال الشاعر:

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦)، والترمذي في سننه (٢٠٢٠).
(٢) روضة العقلاء، لابن حبان، (٢/٥٥٦).

سكتُّ عن السَّفيهِ فظنَّ أني
عييْتُ عن الجوابِ، وما عَييْتُ
شِرارُ النَّاسِ لو كانوا جميعاً
قَذى في جَوْفِ عيني ما قَذِيْتُ
فلستُ مُجاوِباً أبداً سفيهاً
خَزِيْتُ لِمَنْ يُجافيهِ خَزِيْتُ
إذا نَطَقَ السَّفيهُ فلا تُجِبْهُ
فخيرٌ مِنْ إجابتِهِ السُّكُوتُ[1]

وهكذا يتمسَّك القارئ الناجح بأهداب الحلم، ويكظم غيظه، وهذا يحتاج إلى التروي، والحكمة، والصبر، والعفو، انطلاقاً من تمثُّل مجموعة النظم الأخلاقية؛ لما يترتب على

(١) الصمت وآداب اللسان، لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، (ص٧١٥)، وأدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق ياسين السواس، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٩٩٥م، (ص٤٠١)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، (٣/ ١٧٩).

الحلم من الخير الكثير، وصفاء العلاقات، ومتانتها، وتحقيق الأمن الاجتماعي بين الناس[١].

١٧ ــ القناعة

مهما أُوتي الإنسان من أنواع المال، فإنه لن يكون سعيداً ما لم يشعر بالرضا والقناعة؛ لأن التنافس في مجال المال لا ينتهي، مع ما يرافقه من القلق والاضطراب الممتد مع كل صفقةٍ، وزيادةٍ، ومقارنةٍ مع ما يملكه الأثرياء.

أما **القارئ الناجح فيشعر بالقناعة**، وهي الرضا بما قُسِم للمرء من متاع الحياة الدنيا، وعدم حَسَد الآخرين، فليس للحياة طعم ولا لذة من دون قناعة ورضا، وما ضاقتِ الحياةُ إلا في وجه من اتخذ الجَشَعَ طَبْعاً، والحرص طريقاً، ولا عاش بسعادةٍ غامرةٍ إلا مَنِ الرضا حليفه، والقناعة أليفه[٢].

قال رسول الله ﷺ مصححاً النظرة العجلى لفهم فريق من الناس للغنى، ومحدداً المفهوم الصحيح: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس**»[٣].

---

(١) أخلاق الكبار، لمحمد عبده، (ص٩٧).

(٢) فتح الخلاق في مكارم الأخلاق، لأحمد سعيد الدجوي، (ص٧٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١). =

والقارئ الناجح لا يكره المال، ولكنه لا يهلك نفسه لتحصيله، ولا يلهث وراءه ليقتنيه، ولا يذلُّ كرامته ليجمعه، فالكفاف خير، ونعم المال الصالح للعبد الصالح.

إن جلسةً مع كتابٍ مفيد لا تُقَدَّر بثمن، ولا تُستبدل بغيرها، وهذا هو دَيْدَنُ العلماء، وتاريخنا مفعمٌ بالأخبار والآثار الدالة على ذلك.

قال السَّخاوي عن شيخه ابن حَجَر العسقلاني: «إنما كانت هِمَّته المطالعة، والقراءة، والسماع، والعبادة، والتصنيف، والإفادة؛ بحيث لم يكنْ يُخْلي لحظةً من أوقاته عن شيء من ذلك؛ حتى في حال أكْلِه وتوجُّهه وهو سالك، كما حكى في ذلك بعضُ رُفْقَتِه الذين كانوا معه في رحلته، وإذا أراد اللهُ أمراً هيَّأ أسبابه»[1].

وقال ابن الجوزي في ترجمة الحافظ أبي طاهر بن أبي الصَّقر (ت ٤٧٦ هـ): «كان من الجوَّالين في الآفاق، والمكثرين من

= «**العَرَض**»: كل ما يُقْتَنى من المال وغيره.

(١) الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر، للسخاوي، تحقيق إبراهيم باجس، دار ابن حزم، بيروت، (١/ ١١٠).

شيوخ الأمصار. وكان يقول: هذه كتبي أحبُّ إليَّ من وزنها ذهباً!»[١].

وهكذا هو **القارئ الناجح، لا ينفك عن المطالعة، ومتابعة العلوم، مع الرضا بما هو فيه، والشعور بالسعادة الحقيقية** وهو يتابع الكلمات بين السطور.

١٨ ــ الرجوع إلى الحق

الخطأ في حياة الناس أمرٌ واردُ الحدوث، ولا يستطيع إنسانٌ أن يدَّعي العصمةَ مهما كان شأنه إلا الأنبياء والرسل، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**كلُّ ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوابون**»[٢].

والخطأ الحقيقي يتجلى في تمادي بعضهم في الخطأ، وعدم اعترافهم به، مع الإصرار عليه، والجدال عنه بالباطل، واعتبار الرجوع عنه نقيصة[٣].

والقارئُ الناجح يعترف بالخطأ، ويرجع إلى الحق،

---

(١) المنتظم في أخبار الملوك والأمم، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، (٩/٩).

(٢) رواه أحمد (٣/١٩٨)، والترمذي (٢٥٠١)، وابن ماجه (٤٢٥١).

(٣) أخلاق الكبار، لمحمد عبده، (ص٨٦).

ولا يسترسل فيما وقع فيه من الهفوات، والعثرات، بل يبادر مسرعاً لتصحيح الفكرة، والسلوك، والمسار، فيقبل المراجعة، ويشكر مَنْ أهدى إليه عيوبه.

ذكر القاضي عِياض - رَحِمَهُ اللَّهُ - في ترجمة أبي بكر محمد بن وسيم الطُّليطلي؛ أنه كان رأساً في كلِّ فن، مُتقدِّماً فيه. . .قال: «ودَخَل عليه - وهو في النزع - بعضُ أصحابه، فناداه، فلم يُجِبْهُ، فقال الآخر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]. فقال له أبو بكر حين ذلك: نزلت في الكفار، وفيها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾».

فتراجع الزائر عن استخدام الآية في غير موضعها[1].

وهكذا فإن طالب العلم، **والقارئ الناجح لا ينقاد مع هواه، بل يتراجع عن خطئه،** كلما أدرك ذلك، أو رأى من ينصحه بالعدول عما هو فيه.

قال الشاعر:

إذا ما رأيتَ المرءَ يقتادُه الهوى

فقد ثكلته عند الشَّدائدِ ثواكلُه

---

(١) ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب، (٦/ ١٧٦).

وقد أشمتَ الأعداءَ جهلاً بنفسه
وقد وجدتْ فيه مقالاً عواذِلُه

وما يردعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى
من الناس إلا حازمُ الرأس كاملُه

١٩ ــ طلاقة الوجه

الابتسامةُ هي الوجه الأجمل للحياة، وباعثة الأمل في النفوس، وخازنة رصيد المحبة في قلوب العباد.

ولا يظنن أحد أن القارئ الناجح عبوس الوجه، مكفهرُّ القَسَمات، بل هو مبتسم، يفتح الأفئدة بسلوكه، وطلاقة وجهه الباشّ، لا سيما في المواقف الصعبة، حيث يتجاوز كل المصاعب والعثرات ببشاشة، وتفاؤل.

ولا يحسبنَّ أحد أن الابتسامة تمر مروراً عابراً، بل لها أثر لا يُمحى، إذ تُقوِّي العزيمة، وتُعلي الهمَّة، وتُصفِّي العلاقات بين الناس.. وفوق هذا وذاك ينال المبتسم الأجر الجزيل، والثواب العظيم؛ قال رسول الله ﷺ: «**كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ**»[1].

(١) رواه الترمذي في سننه (١٨٩٣).

والقارئ الناجح هو الذي يحافظ على الابتسامة الدائمة؛ التي تحفظ النضارة لوجهه، وتضع القبول له في نفوس المحيطين به.. والنفوس بطبيعتها تنفر من الوجه العابس، وتلتف حول الوجه المبتسم[١].

وقد لفتَ التوجيه النبوي الانتباه إلى أهمية الابتسامة لامتلاك القلوب، فقال ﷺ: «**إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم، ولكن يَسَعُهم منكم: بَسْطُ الوجه، وحُسْنُ الخُلُق**»[٢].

وللشاعر إيليا أبي ماضي قصيدة جميلة تدعو إلى توظيف الابتسامة لمواجهة المشقَّات، والتغلب على الواقع المر، يقول:

قال: السماءُ كئيبةٌ، وتجهَّما

قلتُ: ابتسمْ يكفي التَّجهُّم في السَّما

قال: الليالي جرَّعتني علقما

قلتُ: ابتسمْ ولئنْ جرعْتَ العَلْقَما

فلعلَّ غيرَك إنْ رآك مُرنَّما

طَرَحَ الكآبةَ جانباً وترنَّما

---

(١) أخلاق الكبار، لمحمد عبده، (ص١٣٧).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده، (٦٥٥٠).

أتُـراك تـغـنـمُ بـالـتـبـرُّم درهـمـا
أم أنـتَ تـخـسـرُ بـالـبـشـاشـةِ مـغـنـمـا؟!

فاضحكْ فإن الشُّهْبَ تضحكُ والدجى
مـتـلاطـمٌ؛ ولـذا نـحـبُّ الأنـجـمـا[1]

(١) إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر، لزهير ميرزا، دار اليقظة العربية، دمشق، ط٢، ١٩٦٣م، (٦٧٥ ـ ٦٧٦).